

عراقيون « الملاحق » الأخبار « ملاحق جريدة المدى اليومية

العالم العراقي بهنام أبو الصوف: نعم توجد مدرسة عراقية في مجال الآثار



التاريخ من باطن الأرض هذا ما يقوله الدكتور بهنام أبو الصوف وهو لا يمزح في هذا القول، ولا يقوله بغرض الاثارة والتشويق، انما يعبر عن اختصاصه واهتمامه، فهو عالم آثار والآثار تاريخ، وهي موجودة في اعماق الارض.

وللدكتور أبو الصوف مسيرة طويلة مع الآثار، فقد عمل منقبا ومؤلفا واداريا ومفتشا فيها بعد دراسة اكااديمية غنية، اذ التحق بقسم الآثار والحضارة في جامعة بغداد في عام تأسيسه 1951، وتخرج فيه بدرجة جيد جدا عام 1955، وعمل بعد ذلك في المسح الآثاري بحوض دوكان في محافظة السليمانية، وارااضي مشروع المسيب الكبير في محافظة بابل،

وبعد اكمال دراسته في جامعة كيمبريدج العريقة ببريطانيا خلال الستينات عمل منقبا في القصر الشمالي الغربي للملك آشور ناصر بال في موقع نمرود في نينوى، كما عمل في موقع تل الصوان قرب سامراء، وفي موقع قلعة اربيل، وتولى مهام ادارية وتفتيشية في مجال الآثار في العديد من المناطق العراقية، ودرس مادة الآثار في عدد من الجامعات العراقية والعربية والاجنبية مع الدكتور بهنام أبو الصوف كان لـ «الشرق الأوسط» هذه الجولة الحوارية

هل ساهمت ابان عمك الطويل في كشف مواقع معينة؟

- نعم، لقد ادى عملي في تل الصوان في سامراء الى الكشف عن بقايا قرية من العصر الحجري الحديث، تعود الى مطلع الألف السادس قبل الميلاد، كما ادى عملي في موقع قاينج آغا قرب قلعة اربيل الى الكشف عن مستوطن واسع من عصر الوركاء، مع معبدتين قائمين وسط حي سكني مقام على مسطبة من اللبن تشكل بدايات الزقورات (الابرار المدرجة) في وادي الرافدين

وماذا قدمت هذه المواقع؟

انتم تعلمون ان التنقيب لا يجري للحصول على مادة تاريخية غير معروفة فقط او ادلة وبراهين جديدة عن مرحلة او مراحل من التاريخ القديم لأي بلدة. وفي اعمال الميدانية، خاصة في تل الصوان وقاينج

آغا في اربيل، اذ حصلنا في الموقع الاول على نتائج مذهلة وجديدة عن حلقات كانت مجهولة من مطلع الألف السادس قبل الميلاد في وسط العراق، وحصلنا في الموقع الثاني على اجوبة مهمة لكثير من المسائل المعمارية والفنية والاجتماعية عن مرحلة بدايات عصر الوركاء في منتصف الألف الرابع قبل الميلاد

وأى المواقع الأثرية التي عملت فيها اقرب الى نفسك؟

- كل الاماكن التي عملت فيها احمل لها في قلبي ذكريات جميلة وانطباعات رائعة، ابتداء من حوض سد دوكان في منطقة رانية بقراها الجميلة وناسها الطيبين البسطاء، ونهر الزاب الصغير الذي يشق طريقه في وسط ذلك السهل الفسيح الذي تحول الى بحيرة، حتى اراضي مشروع المسيب الكبير التي كانت مغطاة بكثبان الرمل المتحركة، والتي كنت التقى فيها بقطعان كثيرة من الغزلان كلما دخلت ربوعها ولدي ذكريات جميلة ايضا عن سنوات التنقيب في منطقة خرساباد، منطقة الآلهة الاشورية السبعة، وحوض سد حميرين التي انقذنا خمسين موقعا فيها قبل ان تغمرها مياه السد، كما انقذنا في حوض اسكي في الموصل مائة وخمسين موقعا اثريا

وفي ذاكرتي موقع خاص للعمل في تل الصوان جنوب سامراء، حيث وفقت للكشف عن المكان الذي انتقلت منه معارف فلاحي شمال العراق الاوائل الى مواطن وسط وجنوب العراق، في مطلع الألف السادس قبل الميلاد. وكان لاكتشافاتي غير المسبوقة في هذا المكان صدى واسع في اوساط الآثار العربية والدولية، حيث اخذت مكانها في مختلف النشريات العالمية الأثرية، كما اخذتني لعدد من الجامعات في الكثير من انحاء العالم لالقاء المحاضرات عنها

أساتذة وعمال

ومن هم اساتذتك في مجال الآثار؟

- اساتذتي يتوزعون الى قسمين، اولئك الذين درست الآثار على ايديهم، والذين عملت معهم في ميادين الآثار. القسم الاول يبرز فيه العالمان العراقيان الجليلان طه باقر وفؤاد سفر، اذ اخذت عنهما الشيء الكثير في علم الآثار والتنقيب عنها والكتابة عن مواضيعها والمعرفة في شؤون البحث الاثري.. والقسم الثاني هم زملائي واخوتي من العمال الفنيين الميدانيين الذين تعلمت منهم الكثير من دقائق وجزئيات حرفة التنقيب عن الآثار، وكيفية التمييز بين طبقات الارض والتميز بين الابنية والاسس والجدران والتعرف على الطابع المعماري لكل عصر. اذ ان هؤلاء العمال الذين سكنوا قرى منطقة الشرقاط العراقية، وقرى السديرات العليا والسفلى والذين ينتسبون الى عشيرة الجبور اتقنوا حرفة البحث عن الآثار لاحتكاكهم المباشر بالارض والتربة وانقاض المواقع الأثرية، كما تعلم ابائهم واجدادهم من البعثات الاجنبية المنقبة عن الآثار الشيء الكثير.. وانا ادين لهم بما املك من خبرات في التنقيب الميداني، وهم كثيرون ويعتمد عليهم في هذا المجال

مراحل آثار

ماذا عن المراحل التي مررت بها كعالم آثار، هل يمكن اطلاعنا عليها؟

- لقد مررت بثلاث مراحل، فالخمسينات والستينات كانتا بالنسبة لي مرحلة الدرس والتعليم والتدوين، ومرحلة السبعينات كرسيت للمسح الاثري والاكتشافات والتوثيق والتأليف، ثم جاءت مرحلتا الثمانينات والتسعينات وهي مرحلة التنظير والتدريس والنضج الفعلي الاكاديمي والقدرة على تقديم المشورة

والتنقيبات الأثرية في العراق.. ما هي أبرز المراحل فيها؟

- طبعاً مرحلة العشرينات. على الرغم من أن هذه المرحلة لم تتميز حقاً بجهود عراقية، بل كانت تعتمد على البعثات الأجنبية، وذلك لأهمية الاكتشافات الأثرية الحاصلة فيها. إذ حصلت فيها مكتشفات المقبرة الملكية في أور والتعرف على آثار كيش والوركاء ولكش، كما تحقق فيها الكثير من منجزات التعرف على مكونات الكتابة المسمارية ورموزها بشكل جعلها المرحلة التي وضعت فيها الأسس لعلم الآثار الحقيقي، ليس في العراق فقط وإنما في عموم الشرق

وتميزت مرحلة الأربعينات باكتشافات العالم العراقي الدكتور فؤاد سفر في مواقع حسونة واريديو، وهي تعد حدثاً مهماً وجديداً، إذ قدمت إضافات جديدة في التعرف على بدايات الاستيطان في جنوب العراق، وبدء نشوء القرى الزراعية الناضجة في الشمال والكشف عن الكثير من الآثار

وقد عرف عقدا الستينات والسبعينات مكتشفات أثرية مهمة، إذ كانت مكتشفات تل الصوان إضافة بارزة في التعرف على جذور حضارات وادي الرافدين، وجاءت مكتشفات قبور الملكات الآشوريات في نمرود والثروة الكبيرة من المصاعف الذهبية التي كانت تزين أجسادهن، ذات أهمية كبيرة في التنقيب الأثري في العراق

وكيف تنظر إلى الجهود الأثرية العراقية بالمقارنة مع العربية والأجنبية؟

- في الواقع إن ما قدمه الآثريون العراقيون متميز وكبير، وبعضه يوازي أو يفوق في نتائجه على ما حققه نظيره العربي والأجنبي، لكن الذي يحصل ضعف معرفة الآخرين به، إذ ينقصه النشر العلمي الجيد والإعلام الأكاديمي والآثري

أسماء بارزة

وهل توجد أسماء عراقية بارزة في علم الآثار؟

- نعم توجد عدة أسماء، ومن أبرزها كما أسلفت، العالمان الكبيران المرحومان طه باقر وفؤاد سفر، اللذان يعدان من أبرز آثري المنطقة العربية في أواسط القرن العشرين، وهما من أبرز علماء العالم في هذا المجال. ويحق لعدد من تلامذة هذين العالمين الكبيرين من الجيل الثاني والثالث من الآثريين أو العلماء المسماريين من العراقيين أن يوصفوا بالجدارة العلمية والتميز، أمثال الدكتور فاضل عبد الواحد أستاذ السومريات في جامعة بغداد والدكتور عامر سليمان المختص في حقل السومريات في جامعة الموصل

هل يعني هذا وجود قاعدة أكاديمية عراقية جيدة في علم الآثار؟

- نعم نحن متميزون في الدراسات المسمارية وجامعتنا ذات قاعدة جيدة بسبب وجود أساتذة متميزين في هذا الحقل، لكننا في الدراسات الأثرية وطريقة تدريس الآثار تعوزنا التقنية ووسائل الإيضاح، وذلك ما تحتاجه متاحفنا، كما يحتاجه الجانب العلمي الميداني الخاص بالتنقيب عن الآثار

وهل توجد مدرسة عراقية في مجال الآثار؟

- لا شك في ذلك، فالمدرسة العراقية في الآثار لم تعد جديدة وإنما قطعت العديد من المراحل، إذ وضع أسسها العالمان المرحومان طه باقر وفؤاد سفر، كما كان للمرحوم الدكتور ناجي الاصيل فضل تأسيس قسم جامعي لدراسة علم الآثار في مطلع الخمسينات انطلاقاً من الآثار العراقية وخصوصيتها، وما قدمت من مرتكزات ونتائج عملية. ومن خصائص المدرسة العراقية أنها تعمل على أساس مفاهيم وطنية وقومية وتتعامل مع معطيات ونتائج التنقيبات بما يعزز علاقة الأثر بموقعه ويحافظ على الأثر نفسه وهذا التعامل يختلف عن التعامل الأجنبي مع الآثار الذي يؤدي إلى نقلها إلى خارج مواقعها مع تخريب هذه المواقع

ولقد قامت المدرسة العراقية بتصحيح الكثير من المفاهيم المدسوسة والمنحرفة التي حاول بعض العاملين في الآثار والتاريخ من الغربيين، خاصة من المستشرقين، بثها عن أصالة الحضارة العربية بشكل عام والحضارة العراقية بشكل خاص، وكانت تهدف إلى التشكيك بهذه الأصالة والتشكيك بما حققته من منجزات

كتب وتاريخ

ولكن الأجانب كتبوا الكثير من المؤلفات الجيدة عن الآثار العراقية! - نعم بعضها جيد، لكن ترجمتها لم تكن جيدة في أغلبها، إذ تعوزها الدقة وضبط المصطلحات. وقد أوضحت في أكثر من مناسبة أن هذه المؤلفات مهمة وخطيرة وتخصصية ويجب أن تعرض على جهات ذات اختصاص. كذلك يجب أن تعرض على جهات أكاديمية لمراجعتها قبل نشرها، ولا بأس من تولي مترجمين محترفين نقلها إلى العربية، لكن من المهم والضروي عرضها على أثاريين وعلماء مسماريات أو مؤرخين قبل النشر، وهذا ما سيساعد على التنبيه إلى السلبيات فيها، والرد على ما تتوفر عليه من مفاهيم مدسوسة ومنحرفة ويساعد على ضبط المفاهيم والمصطلحات العلمية فيها

ولكن هذه المؤلفات ما زالت معتمدة في دراسة الآثار العراقية فما هو رأيك بذلك؟

- هذا امر مرهون بالنشر وسرعة وصول المعلومات. فالمنقب الأجنبي، ومن ورائه الجامعات والمتاحف والمؤسسات يسعى إلى سرعة نشر ما يحصل عليه من نتائج ومعلومات لتدخل في المؤلفات والموسوعات، لكننا نعاني التأخر في نشر نتائج تنقيباتنا، فهي لا تنشر بسرعة أو بالأسلوب العلمي الأمثل لتأخذ طريقها إلى المراجع أو تصبح مرجعاً يحتذى به وينقل عنه ومع هذا فإن المراجع العراقية عن الآثار العراقية ليست قليلة، وهي معتمدة في دراسة هذه الآثار

وانت كيف جمعت بين التنقيب والتأليف في الآثار؟

- على الأثاري الجيد أن يكون كاتباً جيداً ليتمكن من استعادة الماضي وإعادة كتابة التاريخ من مصدره الأكيد وهو الأرض وما تتم من مخلفات الأجداد والماضي. وهناك مقولة شائعة في ميدان الدراسات الأثرية يجب أن لا تغيب عن البال، وبالإخص عن أذهان الأثاريين الشباب وهي «أن التنقيب تخريب»، أي أن فتح الموقع الأثاري واستخراج مكوناته من بقايا معمارية أو فنية أو كتابية هو عملية إزالة تامة لهذا الموقع أو محوه من الوجود إذا لم نتمكن من أن نوثق بالرسم والصورة والخارطة والملاحظة كل دقائق الموقع، بكل موجوداته وطبقاته وأدلته وإذا لم نستطع وصف وتحليل ودراسة هذه المظاهر والمعالم واستنباط ما يدل على المكان وسكانه وعملهم وفنونهم وعقيدتهم وعلاقاتهم وتقاليدهم.. الخ.

نكون قد دمرنا اثرا ودليلا لحياة ماضية، لذا وجب ان يكون الاثاري الجيد كاتبا ومؤلفا ومؤرخا، ومن هذا المنطق تجدني منقبا ومؤلفا، اعمد الى نشر تنقيباتي في حينها وظروفها، وبهذا جمعت بين المنقب والمؤرخ والمؤلف في آن واحد، وصدرت لي الكثير من المؤلفات الخاصة بأعمالي في التنقيب ومنها «ديلمون الفردوس المفقود» و«ظلال الوادي العريق» و«العراق حدث الارض» و«الحضارة والانسان» و«التاريخ من باطن الارض

عن جريدة الشرق الاوسط 2010

